الفصل السادس

الثـــورة العرابية

— ٢ —

انفجار الثورة العسكرية . مذبحة الاسكندرية . المندوب الشاهانى . سفر الخديو للاسكندرية . نظارة راغب باشا . مؤتمر الاستانة وسياسة الدول . انسحاب فرنسا من الميدان . تهديدات الاميرال سيمور ومطالبه . اجتماع فوق العادة لمناقشة الموقف . ضرب طوابى الاسكندرية . أخطر ما رأينا ورجوع الخديو الى سراى رأس التين .

انفجار الثورة العسكرية . امتدت الحركة العرابية وانضم إليها طائفة من الكتاب القديرين ، والخطباء المؤثرين ، منهم من أخذوا عن السيد جمال الدين الأفغانى تعاليمه فى وجوب نهضة الشرق ، وما كان ينشره لايقاظ أهله من غفلتهم ، والانتباه إلى مكائد الدول الأوربية للتسلط على الممالك الشرقية ، وفى مقدمتها الدولة البريطانية . فكنا نقرأ لهم فى الصحف مقالات ملتهبة ، ونذهب الى اجتماعاتهم فنسمع منهم خطباً حماسية مثيرة . وكانوا يبثون روح الوطنية ويستفزون الناس لمقاومة الأجانب تخلصاً من الديون التى تثقل كاهل البلاد والأهالى ، والتى كانت سبباً للتدخل الأجنبى

وكان من وراء هؤلاء جماعة انفسح لهم المجال فلم يجد تحمسهم حداً ينتهى إليه . وفى مقدمة هؤلاء عبدالله نديم ، فقد كان يستثيرالشعور دون حيطة أوتبصر ، وكان قلبه ، فى جريدة الطائف ثم لسان الأمة ، شعلة من نار ، ولسانه فى خطبه حرباً عواناً . ويليه فى ذلك حسن أفندى الشمسى ، الذى كان يحرر جريدة المفيد

وانقلبت مصر مسرحاً للخطباء فى كل مجتمع وناد ، حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعـــد

اقصائهم عنها وغيرهم . حتى لقد سمعت ان محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل : « فى أى فرح تغنى الليلة ؟ » أجاب : « فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم »

وكثيراً ما كان الخطيب يستصحب معه بعض طلبة المدارس وبعد خطابته يقدم أحدهم إلى الجمع ليخطب فيهم إلى جانبه. فينبرى الطالب مثيراً فى الحاضرين الغيرة والحمية. وقد شاهدت عبد الله نديم مرة يقدم فتحي افندى زغلول (باشا) الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب فى حفلة عظيمة ، وبعد أن جال بخطبته فى السياسة كل مجال أمسك عبد الله نديم بذراعه وقال للحاضرين : « ألا تعجبون لما أبداه هذا التلميذ فى خطبته من العلم والبيان والتفنن فى المواضيع مع أن جلادستون خطيب انجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً فى خطبته !! »

وفى هذه الحفلة ألقى الشيخ محمد النجار زجلا رقيقاً حاز الاعجاب . وكانت «اللازمة» فيه:

أفضل أقضّى العمر فى كان وكان   ياودن طنى كل ساعة خبر

إشارة الى هياج الأفكار ، وتضارب الأخبار

وقدم مرة أخرى فى احدى الحفلات الطالب مصطفى افندى ماهر (باشا) فخطب القوم وراقهم خطبته ، فقال عبد الله نديم : « اشهدكم أيها الناس ان أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها »

وكان عرابى والبارودى وعبد العال حلمى وعلى فهمى وغيرهم من زعماء الحركة يحضرون أكثر هذه الحفلات ويتصدرونها . فتلقى الخطب والقصائد فى مدحهم وتقديسهم وتعداد مناقبهم ، ولا ينصرفون عنها إلا بالتهليل والتكبير . فاذا انتهت خرج الناس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسة . وأصبح الناس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم ، وانحلت الطبقات ، واختلط الحابل بالنابل ، والعالى بالسافل

وقد كان عرابى يمثل فى شكل البطل المنقذ . وقد وزعت صورته فى أنحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة وعلى رأسه عبد العال قابضاً على سيفه والى جانبه على فهمى وهو يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها « الدستور »

وهكذا سارت الروح العرابية فى الأمة بأسرها وجعلت كل الطبقات فى صعيد واحد ممتزج بعضها ببعض

مذبحة الاسكندرية . وبينما نحن فى السراى نضرب أخماساً فى أسداس لتفاقم الحال الى هذا الحد . جاءت الانباء من الاسكندرية يوم ١١ يونيو بوقوع حادث فظيع وهو مذبحة شنيعة هلك فيها كثير من الاهالى والاجانب

وهذه الحادثة هي أن تشاجر زجل مالطى مع مكار مصرى فى الاسكندرية لامتناع المالطى عن إعطائه الأجر الكافى نظير ركوب حماره . وكان المالطى ثملا فطعن المكارى بمدية ، فانتصر لكل منهما قوم من أبناء ملته فتذمر جمهور من الوطنيين وأرادوا أن يثأروا من الأوربيين . ولا سيما أن الحركة العرابية كانت قد أوغرت صدور بعض الفريقين من بعض ، وابتدأ الأوربيون يطلقون النيران من النوافذ على كل مار من الوطنيين . فازداد غضب المتجمهرين ، وتضاعف الخطب ، ولم يوجد من يزجر الجماهير أو يشرح لهم ضرر فعلتهم ، مع تمادى الأوربيين المتحصنين فى بيوتهم فى إطلاق النار ، حتى عظم القتال بين الفريقين ، وانتهز الرعاع هذه الفرصة ونهبوا كثيراً من المحلات التجارية . ثم صدرت الأوامر للجند بتفريق المتجمهرين ، فلم يأت الغروب إلا وقد هدأت الاحوال وسكن الاضطراب . وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت عليهم شبهة القيام بهذه الثورة

وجرح المستر كوكسن فى رأسه ، كما جرح قنصل جنرال اليونان . فكان لذلك النبأ شأن عظيم ، ولا سيما عند الخديو وجميع رؤساء المعية . وكان أخطر ما تتوقعه بسبب هذه الحادثة هو تدخل الاجانب فى شئون البلاد تدخلا فعلياً ، لاسيما وأنه كان لها دوى عظيم فى أوروبا إذ نسبته الجرائد الأجنبية الى التعصب الدينى بالرغم من أن المسيو دو فريسنيه أعلن فى مجلس النواب أن ليس لهذه الحادثة من أهمية سياسية

قلنا فى الفصل السابق ان الخديو التمس من السلطان إرسال مندوب لتهدئة الخواطر ففى ٧ يونيو حضر المندوب وهو الغازى مصطفى درويش باشا المشير ، وبينما كان يستعمل نفوذه لارجاع الطمأنينة للبلاد وقعت مذبحة الاسكندرية ، بعد حضور بأربعة أيام

فتوجه إليه قناصل الدول الجنرالية وطلبوا منه المحافظة على سلامة الاجانب بالبلاد ، فأجابهم بأنه ليست لديه ولا فى يد الخديو قوة لتنفيذ ذلك

غير أنه سبق أن أمر عرابى باعطاء أوامر صارمة لحماية الاوربيين فى الاسكندرية وقال إنه سيجتمع بسموه وينظران فى الامر

وفعلا علمنا فى يوم ١٢ بعقد اجتماع فى السراى تحت رياسة الخديو وبحضور درويش باشا وشريف باشا وعرابى ومعتمدى الدول ، وحصلت المباحثة فيما التمسه القناصل فطلب سموه من عرابى منع الاجتماعات الثورية والمحافظة على الامن بالجيش

فأطاع ووعد بتنفيذه . كما أن توفيق أصدر منشوراً يوصى فيه الاهالى بالمحافظة على الامن العام . وألقى درويش باشا المسئولية على الخديو وعلى عرابى لتنفيذ ما تقرر ، فاطمأن معتمدو الدول وانصرفوا شاكرين

المندوب الشاهانى . جاءت برقية للخديو من الاستانة فى ٣ يونيو، تنبىء بأن المشير درويش باشا الغازى سيبرحها فى هذا اليوم الى مصر ، فأمر سموه بنزوله ضيفاً كريما عليه ، وعين على ذو الفقار باشا السر تشريفاتى لاستقباله فى الاسكندرية

ولما علم توفيق ، بأن عرابى سينتدب يعقوب سامى باشا وكيل الحربية من قبله لاستقبال المندوب الشاهانى ، نبه سموه على السرتشريفاتى بعدم تقديمه اليه ، ولا إنزاله بالقطار الخصوصى من الاسكندرية لمصر



درويش باشا

وفى ٧ منه وصل المندوب ، وكان بمعيته قدرى بك كاتم أسراره ، ولبيب افندى كاتب الشفرة ، ثم ياوره ، والسيد احمد أسعد وكيل السلطان فى الفراشة النبوية ، ومن المقربين اليه ، وبعض الخدم

وفى ٨ منه استقل الجميع القطار الخاص ، ورغماً عن تنبيهات توفيق ، فان الغازى استصحب يعقوب باشا معه . ولما نزلا فى محطة العاصمة ، رافقه الى المكان المعد لضيافته . فساء سموه هذا العمل

وفى اليوم المذكور حضر المندوب للسراى وقابل الخديو ، وأبلغه السلام الشاهانى وتحادثا قليلا . ولم تكن هذه المحادثة مرضية للخديو . فلما رد سموه الزيارة للمندوب فى الحال ، لم يخف عليه عدم سروره من استصحابه يعقوب سامى . لان ذلك مما يشجع

العرابيين ويقوى نفوذهم أكثر مما هو عليه الآن . وسأله إذا كانت مهمته تنفيذ أوامر السلطان وإلا فانه يرفض مقابلته مرة أخرى . فأكد له درويش أنه أتى لتنفيذ أوامر جلالته بالدقة ، وأنه سيعمل على استرداد سلطة سموه

وفى ٩ منه ، عند ما زار مالت السراى ، أخبره الخديو بعدم امتنانه مما سمعه من المندوب الشاهانى حين زيارته له ، وأن جنابه العالى أظهر له استياءه عند رده الزيارة

ولما عاد المندوب لمقابلته مرة ثانية ، وقد استمرت المقابلة طويلا، ظهر للحاشية على توفيق الانشراح وذلك مما سمعه من درويش باشا ، إذ قال بأنه إذا اقتضى الحال سيتولى قيادة الجيش لاخضاع الثوار

وفى نفس اليوم زار المعتمد الانجليزى والفرنسى درويش باشا ، وطلبا منه بالحاح العمل لتأييد سلطة الخديو . فأجاب بأنه منذ وطئت قدماه أرض مصر ، فان الخطر على حياة توفيق قد زال . ورجاه مالت بأن لايثق بما يسمعه من العرابيين. فأجاب المندوب بأنه عند صدور إشارة منه تحضر فرقتان من الجيش العثمانى . وكان يظهر من كلامه الاعتقاد بنجاح مأموريته

ولكن ما هى الأوامر التى صدرت من الصدارة للمندوب الشاهانى لتنفيذها ؟ وهل هناك أوامر خفية من السلطان للسيد احمد أسعد ؟ الى القارىء الجواب عن هذين السؤالين :

كانت الأوامر الصادرة لدرويش باشا :

(١) العمل على مصلحة الخديو (٢) العمل على حدوث مناقشات مع قناصل الدول والتظاهر بالمودة لقناصل ألمانيا والنمسا وإيطاليا وباتباعه لنصائحهم وارشاداتهم (٣) القبض على عرابى وعلى أعوانه وإرسالهم إلى الاستانة إذا وجد لذلك ضرورة (٤) الوصول إلى الغاء مجلس النواب (٥) تقليل نفوذ الخديو (٦) زيادة نفوذ السلطان (٧) طلب قوة عسكرية عند الضرورة

وأما الأوامر الصادرة للسيد أحمد أسعد فكانت :

(١) مساعدة الثورويين وجذب مودتهم (٢) العمل على إحباط دسائس الأجانب المفسدة (٣) شكر الأعيان والعلماء والعظماء من المصريين لما أظهروه من الولاء للخليفة (٤) ليس فى نية السلطان إرسال قوة عسكرية (٥) أن لا يحرم الخديو من الامتيازات الممنوحة له بمقتضى الفرمانات

ونظراً لهذه التعليمات المتناقضة التى صدرت لدرويش باشا ولأسعد أفندى ، فان هذا الأخير حار فى أمره ، وطلب من السراى الشاهانية موافاته بأوامر صريحة جلية للسير على مقتضاها . ولكنه لم يظفر برد .

وقد كانت سياسة السلطان المعوجة فى المسألة المصرية محل دهشة وعجب ، ولكن الاعجب من ذلك ما سنقصه عليك :

وصل إلى علمنا أن عرابى يتخابر مع بعض رجال السلطان ، فأمر توفيق تكليف البوليس السرى للسراى للوصول إلى معرفة الوسائل التى يستعملها فى هذا الشأن . وبعد البحث الدقيق تبين أن أحمد راتب باشا ، الياور الشاهانى الذى سبق الكلام عن مقابلته لعرابى برأس الوادى ، هو أحد الذين توسطوا لدى السلطان لتأييد عرابى ، وقد وعده بتوصيل عرائضه للخليفة

ومن جهة أخرى فان الحظ ساعد عرابى على التعرف بعلى راغب ، قبودان احدى بواخر البوسطة الخديوية ، فاستعمله لتوصيل معروضاته للسلطان بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية (١)

ولما حضر الوفد الشاهانى كان السيد أحمد أسعد يحمل لعرابى توجهات الحضرة السلطانية ، وخطاباً من الشيخ ظافر جاء فيه ما معناه : انه قدم للسلطان عريضته وأن جلالته أمره بأن يبلغ عرابى «بمحظوظيته» من مجهوداته والدفاع عن السيادة السلطانية فى مصر ، وأن التلغرافات الواردة من توفيق يناقض بعضها بعضاً ، والسلطان لا يعول على اسماعيل ولا حليم ولا توفيق ، بل على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر

وسلمه فى الوقت نفسه خطاباً آخر من راتب باشا شرح له فيه محادثاته مع السلطان بخصوصه . وقد سر منها وأمر الباشا بأن يعلمه بأن قد سعت الوشاة فى تغيير خاطره منه ، ولكن راتب باشا أوضح الحقيقة فزال الشك فى إخلاصه لجلالته ، ورسم له الخطة التى يجب على كل من تولى حكم مصر اتباعها ولا يهم من يكون خديو لمصر (٢)

بهذه الوسائل توصل عرابى الى مخابراته مع الآستانة

من هذا كله يتضح أن مأمورية الغازى كانت فى الظاهر فى صالح توفيق ، ومأمورية

---

(١) لأن السلطان كان أخذ عهداً عليه

(٢) أخذ ملخص هذين الكتابين من كتاب كشف الستار لعرابى

السيد أسعد كانت العمل فى الخفاء لتشجيع العرابيين لجذبهم إلى جانب الخليفة

وفى ١٠ يونيو توجه وفد لمقابلة المشير ، وكان مكوناً من بعض العلماء والأعيان المنتسبين إلى الحركة العرابية ، وخطب أحد العلماء (الشيخ عليش على ما أذكر) قائلا ان الجيش خلص البلاد من الوقوع فى أيدى الكفار . وأثنى على رؤسائه وعلى وطنيتهم . فقام المندوب وقال بحدة : إنه جاء لتنفيذ أوامر السلطان وليس لسماع خطب مثل التى سمعتها . ثم أمر خدمه باخراج هذا الوفد

منذ حضور الغازى إلى الآن ، لم يعمل عملا منتجاً ولم ينفذ شيئاً مما وعد به توفيق . فالعرابيون لا يزالون أصحاب الكلمة النافذة فى البلاد ، وسلطة الخديو تكاد تتلاشى ، وقصارى جهده اغراء العرابيين .

وكان الظاهر أنه لن يتغلب على المقاومة العسكرية . ولكن رغم ذلك فان مالت نصح لتوفيق بالسير معه إلى النهاية

فى ١٦ يونيو ، لما أحس درويش بعدم نجاحه فى مأموريته ، وكانت محدودة ، أرسل الى الباب العالى برقية يطلب فيها تعليمات جديدة ، وفى الوقت نفسه أرسل يطلب مائتى وسام لتوزيعها على زعماء الضباط ، ومن ذلك المجيد الأول لعرابى ، وكذلك لبعض المنتمين للخديو

فلما وصلت الأوسمة فى أوائل يوليو وزعها درويش باشا، وطلب السيد احمد أسعد من عرابى السفر إلى الأستانة لشكر السلطان على هذا الاحسان ، وكان المقصود من إغرائه على السفر إمساكه هناك فتنتهى المشكلة. ولكن عرابى فهم القصد من هذا السفر. فاعتذر ورجا السيد المذكور ودرويش باشا رفع شكره على هذا الانعام مع خضوعه وزملائه لجلالته لأنه لايستطيع ترك مصر وهى فى حالة الخطر ومن واجبه الدفاع عنها

عند ذلك تحقق الخديو وحاشيته ومالت أن درويش قد فشل تماماً فى مأموريته

ولكن السلطان لما بلغه من برقية أرسلها درويش باشا شكر عرابى وتقديم الطاعة لجلالته ، اعتبر ذلك كأنه توصل إلى حل المشكلة ، وأمر السفير العثمانى بلندرة أن يبلغ ذلك للورد جرانفل

سفر الخديو للاسكندرية . رأى الخديو بعد حصول مذبحة الاسكندرية ، أن يسافر إليها تطميناً لخواطر الأوربيين بها ، فقصدها يوم ١٣ يونيو ، وصحبه درويش

باشا ورجال المعية ، كما سافر اليها أيضاً أغلب قناصل الدول الجنرالية والمراقبان الماليان

ولما وصلناها أطلقت المدافع تحية لاستقباله ، على غير علم من الأهالى ، فكانت مبعث فزع شديد فى نفوسهم ، ظنا منهم أنها صادرة من الأساطيل ، كما عرفنا فيما بعد

وعلى أثر وصول سموه زاره قناصل الدول ، ولم يتخلف منهم إلا القنصلان الفرنسى والانجليزى ، فأبدى لهم شديد أسفه على ما حدث ، ووعدهم ببذل عنايته فى تلافى آثار هذه الكارثة . وكذلك طمأنهم درويش باشا مندوب السلطان

ولقد كان لهذه المذبحة الأثر السيء فى نفوذ الأجانب فى مصر ، وفى الرأى العام بأوربا . ولكننى شخصياً أنسب هذه الحادثة المحزنة إلى انفجار الثورة الفكرية وخطب الزعماء الحماسية

ومع ذلك فقد كان سموه فى تلك الآونة ، يشك كل الشك فى امكان عود الأحوال الى مجاريها ، ما لم تأت جنود عثمانية لتتولى هذه المهمة

وفى ١٣ يونيو سرت اشاعة بان الاجانب يستعدون للهجوم على الوطنيين ، فاجتمع فى الاسكندرية بعض رؤساء الجند وبعثوا لقناصل الدول بتصريح يتضمن انهم لا يتحملون أية مسئولية إذا بدأ الأجانب بالاعتداء . فلما تلقى القناصل هذا الانذار ، اجتمعوا واصدروا الى رعاياهم منشورا بالتزام الهدوء والسكينة

ولكن الاضطراب ظل فى ازدياد ، فكثرت مهاجرة الاجانب من الريف الى الثغور ومن الثغور إلى خارج البلاد . وزاد فى جزع الأجانب كتاب أرسله قنصل فرنسا العام الى نائب الجالية الفرنسية فى ١٤ يونيو ينصح فيه بالهدوء ، ويشير الى أن خير طريق للنجاة هو المهاجرة . وفى نفس اليوم ، نشر مأمور ضبطية مصر بلاغا يدعو فيه الى السكينة ، فلم يجد نفعاً . فكتب عرابى فى اليوم التالى نداء وقعه بامضائه ، فكان أيضاً صرخة فى واد

تأليف نظارة راغب باشا . وفى هذه الأثناء تدخل قنصلا ألمانيا ، والنمسا بمعاونة درويش باشا لدى الخديو . لتأليف نظارة يكون عرابى من بينها . وكان المأمول أن يقبل شريف باشا تأليفها ، ولكنه رفض ثانياً كما سبق ، فاتجهت النية الى راغب باشا . وقد انضم لرأى معتمدى النمسا والمانيا قنصل جنرال ايطاليا وحددوا مهلة ٢٤ ساعة لنهو المسألة خشية حصول مذبحة أخرى ضد الأجانب على حين تكون المسألة المصرية مطروحة أمام المؤتمر المزمع انعقاده بالاستانة

وفى ١٦ يونيو كتب الخديو من الاسكندرية الى عرابى يخبره بانتخاب اسماعيل راغب باشا لرياسة النظارة واختياره هو ناظرا للجهادية ، ويدعوه الى التضامن مع النظار لملافاة الحالة . فرد عرابى على سموه يظهر ارتياحه وارتياح الضباط لهذا الاختيار ويعد بالعمل على تحسين الأحوال



اسماعيل راغب باشا

وبناء على ذلك شكلت نظارة راغب باشا فى ٢٠ يونيو

وفى اليوم التالى اجتمع النظار ووضعوا المبادىء التى ينوون السير على مقتضاها ورفعوها للخديو وهى تتلخص فيما يلى :—

أولا — إصدار عفو عام عن جميع الذين اشتركوا فى الحوادث الأخيرة ، عدا المتهمين فى جرائم الاسكندرية ، والمجرمين العاديين

ثانياً — لا يعاقب أحد إلا بعد محاكمته بمقتضى القانون

ثالثاً — تكون جميع المخابرات مع الدول عن طريق ناظر الخارجية

مؤتمر الاستانة وسياسة الدول . لما رأى دوفريسنيه أن الأحوال فى مصر تسير من سيء إلى أسوأ ، وأن هذه المسألة تهم الدول جميعا ،كما جاء فى معاهدة لندرة سنة ١٨٤٠ التى جعلت المسألة المصرية دولية ، اقترح على اللورد جرانفل أول يونيه عقد مؤتمر فى الاستانة ، يدعى إليه مندوبو الدول ويحضره وزير خارجية تركيا ، للنظر فى حالة مصر على الأساسات الآتية :

أولا — تقوية نفوذ السلطان والخديو والمحافظة على تعهدات مصر الدولية وما تفرع منها

ثانياً — حفظ حقوق مصر التى نالتها بواسطة الفرمانات

ثالثاً — ترقية نظام الحكم فى مصر مع الحذر والتدبير

وقد قبل جرانفل هذا الاقتراح . وفى ٢ يونيو أرسل الى الدول يطلب سرعة عقد هذا المؤتمر ، فأجابت ألمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا بقبول اقتراح الدولتين. وطلبت من الباب العالى الموافقة عليه

وفى ١٣ يونيو أرسلت انجلترا وفرنسا للدول تقول بأنه نظراً لزيادة حالة الفوضى فى مصر يلزم اتخاذ تدابير حاسمة ، وأنه سيدعى السلطان الى مؤتمر دولى ليقرر اعطاء القوة الكافية للخديو لتثبيت سلطته وتكون تحت قيادته ، وشرط أن لا يغير شيئاً فى حالة مصر السياسية ، وأن تحترم الحقوق المعطاة لها فى الفرمانات، وتحترم الاتفاقات الدولية القائمة

وأن لا تمكث القوة فى مصر أكثر من شهر واحد ، الا اذا طلب الخديو والدول العظمى مد هذا الأجل ،على أن تقوم مصر بتحمل نفقاتها

وقد سر الخديو من هذا الاقتراح وأمل تنفيذه ، لأنه هو عين ما كان يطلبه من تدخل تركيا فى حل المسألة

وبعد يومين حضر الى السراى السير ادوار مالت وعرض على سموه فكرة استدعاء مجلس النواب لأخذ رأيه فى طلباته لارسالها الى المؤتمر للنظر فيها ، ومن المحتمل أنه بهذه الطريقة يوجد ائتلافاً بين النواب والزعماء ، الأمر الذى يمكن به اصلاح ذات البين مع الخديو ولو ظاهراً

وعلمنا أن الخديو لم يكن يعارض هذه الفكرة ، غير أنه قال بعدم امكان تنفيذها الا عند ما يتحقق عقد المؤتمر

وقد أرسل مالت إلى ناظر الخارجية بهذه الفكرة ، فرد عليه بأنه لا يستصوب هذا الرأى

ورغما عن بذل الدول المساعى لدى الباب العالى والسلطان فانهما لم يرفضا الاشتراك فى المؤتمر فحسب ، بل أرسل الصدر الأعظم احتجاجاً فى ٢٠ يونيو إلى الدول على عقد المؤتمر

ولما لم تنجح الدول فى مسعاها تقرر عقد المؤتمر بسفارة ايطاليا فى ترابيا بالأستانة فى ٢٣ يونيو

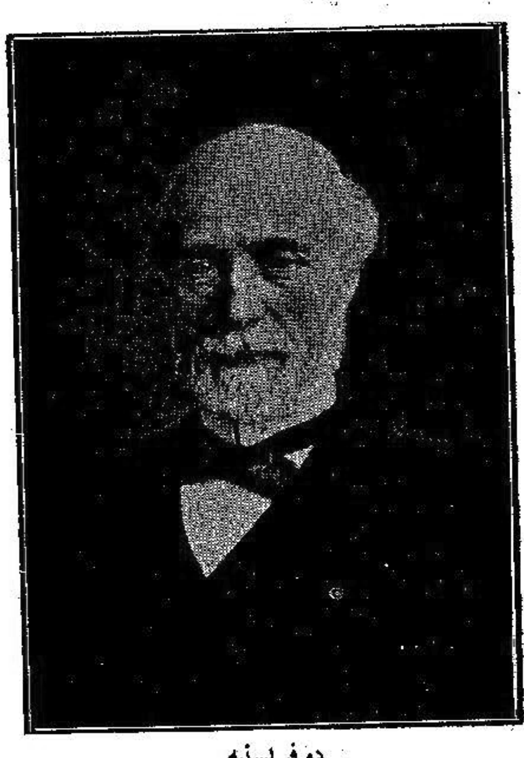
وبالفعل عقد المؤتمر فى اليوم المذكور وبدىء العمل فيه ووقع المؤتمرون فى يوم ٢٥ منه بروتوكول (١) تصرح فيه كل دولة بخلوها من أى غرض أو أطماع لها بمصر

وفى يوم ٢٧ اقترح سفير إيطاليا بالمؤتمر أن تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر ما دام المؤتمر منعقداً ، فاقترح اللورد دوفرين إضافة كلمة « الا عند الضرورة القاهرة »

---

(١) عرف هذا البروتوكول « بميثاق النزاهة » أو « ميثاق التجرد عن الغرض »

ولما علمنا فى السراى بهذا القرار أطمأننا نوعاً بأنه لن يقع اعتداء على مصر . ولكنا توجسنا خيفة من التحفظ الذى اشترطته انجلترا، واعتقدنا أنها لن تعجز عن خلق هذه الضرورة متى شاءت


دوفريسنيه

وقد عرض المؤتمر على الباب العالى فى ٦ يوليو إرسال قوة عثمانية لمصر . واشترط أن تكون مهمتها تأييد مركز الخديو على مقتضى الفرمانات ، ولكنه لم يجاوب المؤتمر الا فى عشرة منه بأنه سيرسل مندوباً من قبله إلى المؤتمر فى اليوم الثانى . وكان قصد الباب العالى من هذا التأجيل ارجاء تنفيذ انذار سيمور النهائى بتدمير الطوابى فى صباح ١١ يوليو

تقلبت سياسة دوفريسنيه ، فبعد أن أظهر عزمه على عدم التدخل الفعلى ، عاد فوافق الوزير الانجليزى على اشتراك الأسطول الفرنسى مع الأسطول الانجليزى فى المظاهرة البحرية ، وبعدها قبل تدخل تركيا تحت مراقبة الدولتين . ثم اقترح عقد المؤتمر على ما تقدم وانتهى باعلانه حريته فى العمل

ولما سئل دوفريسنيه فى مجلس النواب الفرنسى فى شأن هذا المؤتمر أجاب بأن الغرض منه هو إعادة الحال الى ما كانت عليه ، وان فرنسا لم تتنازل باشتراكها فيه عن أى شيء من استقلال سياستها ، وأنها لا تقتصر فى الرجوع إلى حريتها فى العمل إذا كانت قرارات المؤتمر لا تتفق مع مصالحها وما لها من الشأن والمكانة . وفحوى هذه الاجابة أنه يجوز لفرنسا عند الحاجة أن تنفرد عن الاتفاق الدولى .

وكانت سياسة جرانفل ترمى إلى تفويض إعادة النظام بمصر إلى فرقة من الجيش العثمانى بالاشتراك مع الجنود الفرنسية والجنود الانجليزية ، وأن الذى يهم انجلترا فى المسألة كلها هو تأييد الخديو فى عرشه ، وإبعاد عرابى إلى الخارج ، واعادة المراقبة الثنائية . فاذا لم تقم تركيا بهذا العمل أصبح لانجلترا حرية العمل

وقد دعت انجلترا ايطاليا للاشتراك معها فى التدخل الفعلى لأخماد الثورة فاعتذرت

أما سياسة تركيا فكانت فى غاية الاضطراب ، لأن السلطان كان يخشى ، اذا هو تدخل بالفعل لحل المسألة المصرية ، أن يغضب الحزب الأهلى (العرابيين) الذين كانوا يتظاهرون بالولاء لمقام الخلافة ، والسعى فى اعلان نفوذها بين العالم الاسلامى ولأنه يخشى تصادمه مع المسلمين وهو حامى الاسلام . ولكنه كان يأبى فى الوقت نفسه قبول أى تدخل من الدول الأوروبية إذ كان يرى أن سياسته فى مصر يجب أن تقوم على استعمال سيادته لرد الأمن والنظام إليها ، دون أن يكون مسخراً من الدول لتنفيذ ما تقرره فى شأنها . ثم إنه كان يحذر كل الحذر من تدخل انجلترا وحدها ، إذا ترك لها الباب مفتوحاً فتقضى القضاء المبرم على السيادة التركية فى مصر

وفى ٢٠ يوليو انتهى الباب العالى ، بعد مماطلاته ، إلى ارسال مندوبين من قبله للمؤتمر أعلنا قبول الحكومة العثمانية إرسال جيش لاخماد الثورة المصرية ، فاشترطت عليه الدول ، خصوصاً انجلترا ، عدم تغيير علاقاتها بمصر

واشترطت انجلترا بأن لا ترسل الدولة قوة إلا بعد إصدار منشور بعصيان عرابى وبعد تحرير اتفاق حربى مع انجلترا . وماطلت أيضاً تركيا فى عمل هذا الاتفاق حتى كانت موقعة التل الكبير ، وعليه أرسلت انجلترا للباب العالى بعدم الحاجة لعمل هذا الاتفاق . أما سياسة باقى الدول فقد كانت معضدة لتركيا فى الخفاء

انسحاب فرنسا من الميدان . ولما كان مؤتمر الأستانة يوالى أعماله ويصدر قراراته ، كانت انجلترا تعد بالفعل حملة عسكرية لمصر ، على حين كان الموسيو دوفريسنيه يعلن فى مجلس الشيوخ الفرنسى أنه لا يقبل مطلقاً ، أن يتبع فى المسألة المصرية سياسة المجازفة ، وأن الحكومة الفرنسية عقدت عزمها على ألا تقبل أى تدخل عسكرى فى مصر . وكان فى الوقت نفسه قد أصدر أمره ، أمام استعدادات انجلترا ، بتسليح البواخر الحربية الفرنسية واستدعاء بعض الفرق العسكرية . ولما سئل عن ذلك فى مجلس النواب ، أجاب بأنه يرى من ألزم الواجبات عليه أن يجعل فرنسا على استعداد تام لمقابلة الطوارىء ، ولكن على أى حال لا يقوم بعمل حاسم إلا بعد استشارة البرلمان . وأيد الموسيو كليمنصو فى المجلس هذه السياسة أشد تأييد . ثم طلب من المجلس الاقتراع على اعتماد مقداره ثمانية ملايين فرنك ، لأنه لا يليق بأمة عظيمة مثل الأمة الفرنسوية أن تكون متأخرة القدم عن سواها فى ميدان التجهيزات الحربية ، لمقابلة

الحوادث والمحافظة على مصالحها ومكانتها فى العالم . ولكن لم تمض على هذه الأقوال الفخمة إلا ثلاثة أيام ، حتى صدر الأمر الى أميرال الأسطول الفرنسى فى الاسكندرية بان يبارحها فى الحال وينتقل الى بورسعيد ، ليترك الاسكندرية للاسطول الانجليزى وأن يبلغ الأميرال سيمور أنه اذا أرسل انذارا للحكومة المصرية فان فرنسا لاتشاركه فى التدخل الحربى

أما الخديو توفيق فقد كان يود تدخل الجيوش التركية لاخماد الفتنة ، لعلمه أن انجلترا وفرنسا لا تسمحان لها بالبقاء فى مصر متى غادت إليها السكينة ، وإلا فاتفاق فرنسا وانجلترا على التدخل معاً وذلك رجاء أن تغادرا مصر بعد ذلك معاً



الأميرال سيمور

تهديدات سيمور ومطالبه. فى ٣ يونيه علمنا أن الأميرال سيمور أبرق الى دولته بأن العرابيين وضعوا مدافع جديدة فى طوابى الاسكندرية ، والحالة أصبحت خطرة . وسألها عما يمكن اتخاذه اذا لم يكف العرابيون ، وهل يستعمل القوة ؟

فوصلت له الأوامر من نظارة البحرية بطلب منع تقوية الطوابى ، فاستفهم من مالت هل يكون المنع بمخابرات مع الحكومة المصرية أو بقوة الأسطول فكان الجواب بعدم التصادم ، خصوصاً وأن المندوب العثمانى سيصل قريباً الى مصر

وجاءت برقية فى ٥ يونيه من الباب العالى تخبر الخديو بايقاف الأعمال فى طوابى الاسكندرية ، وإلا اضطر الأميرال الى إطلاق مدافعه عليها ، وتكون النتيجة ضياع البلاد . فأرسل سموه لعرابى نص هذا التلغراف وأمره بالكف عن هذه الأعمال ، فأجابه عرابى بأن مصر لم تعتد على انجلترا ولم تهدد أساطيلها بل هى التى تهددنا بمراكبها الحربية ، ومع كل فاطاعة للامر بعث للاسكندرية بايقاف العمل

انتظر الأميرال وصول المندوب الشاهانى ونتيجة مساعيه ، والوصول الى تنفيذ طلبات الدولتين فى المذكرة السالف ذكرها . فى حين أنه كان يواصل استكشافاته عن الاعمال التى كانت تجرى فى الطوابى ، ولم يحرك ساكنا إلى أن وصل درويش باشا وبذل جهده فى اقناع زعماء الثورة لاخضاعهم لارادة توفيق بكل الطرق

ولكن لما علم الاميرال بفشل المندوب فى مهمته ، وأن فرنسا تنحت عن مشاركة أسطولها مع الاسطول الانجليزى، ورأى تحصينات المصريين للطوابى ، أبلغ راغب باشا فى ٤ يوليه بواسطة معتمدى انجلترا وفرنسا أن المصريين يحصنون طوابيهم ، وأنه يعتبر هذا التحصين مهدداً له وأنه بذلك يطلب الكف عن هذا التحصين بغير ابطاء فنفى طلبه باشا ادعاء الأميرال بخطاب أرسله له حتى كان يوم ٧ يوليه حيث انتهز الأميرال فرصة وضع مدفعين كبيرين فى طابية السلسلة ، فأرسل انذاراً لطلبه باشا عصمت يلزمه فيها بايقاف العمل فى تحصين الطوابى فى الحال . ولما أبلغ هذا الخبر لعرابى أجاب واعداً بايقاف العمل ولكن ظل التحصين آخذاً مجراه .

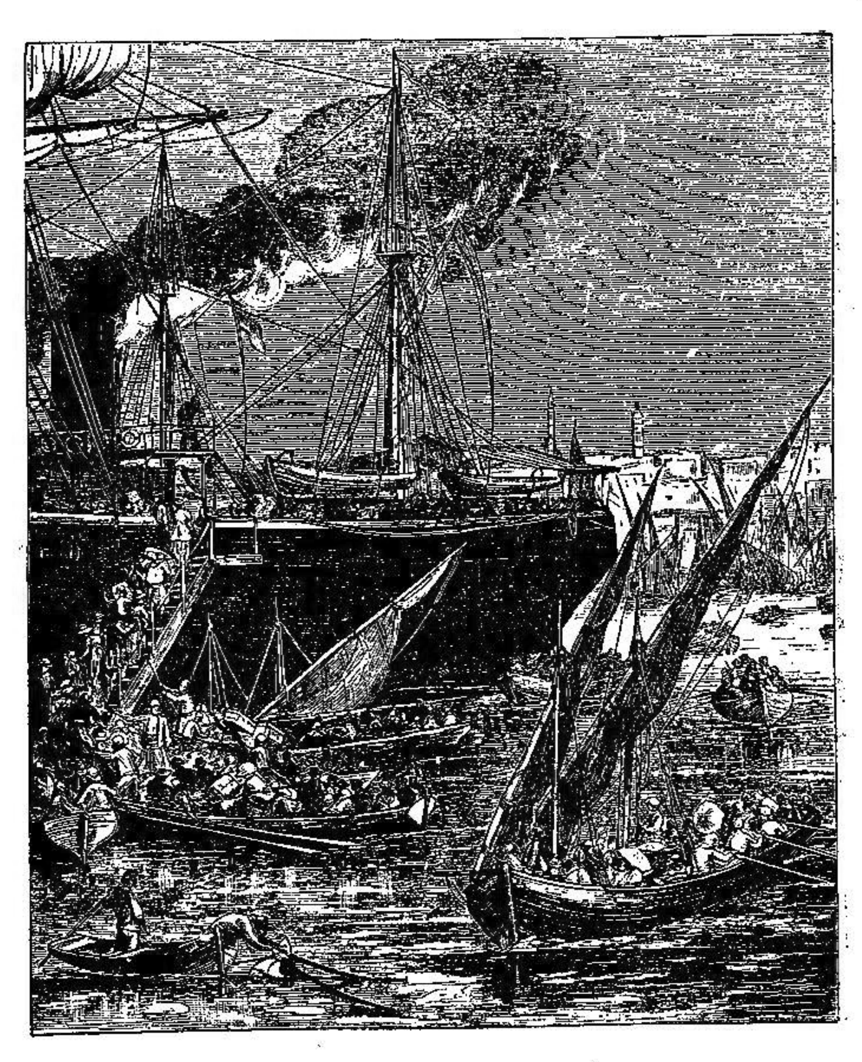
وهنا دب الهلع الى النفوس وعلم الجميع أن الواقعة ستقع قريباً ، فأوعز قنصلا فرنسا وانجلترا لرعايا دولتيهما بالرحيل

وقدم قناصل الدول الأوربية الأخرى الى الأميرال سيمور فى اليوم المذكور ، كتاباً يعرفونه فيه أن لرعاياهم فى الاسكندرية مصالح مهمة وأملاكا واسعة، والمتخلفون منهم عن المهاجرة كثيرون . ويعرضون عليه أن يتوسطوا بينه وبين العرابيين لحسم النزاع بلا قتال . ورجوه مخابرة حكومته فى طلبهم هذا ، فان لم يقبل رجوه فى إعطائهم مهلة للمهاجرة قبل الضرب اذا صمم عليه مع العلم بأن اطلاق المدافع سينشأ عنه تخريب

للمبانى التى يملكها الأجانب ويرجون رفع هذه الملاحظات إلى حكومته قبل تنفيذ أوامرها

فرد عليهم أنه سيرفع إلى حكومته ملاحظاتهم التى أبدوها عن وساطتهم، وأنه يقبلها إذا نفذت عملياً . لانه لا يثق بوعد العرابيين ، فاذا ما استمروا على التحصين اضطر لتوجيه النيران الى الاستحكامات التى لايحصل من ضربها أى ضرر للسكان . ولكن رغم كل ذلك فأنه سيحدد مهلة أربعا وعشرين ساعة قبل اطلاق النيران

فلما وصل الرد إلى قناصل الدول أخذوا يحاولون اقناع العرابيين بمنع التحصين فأبوا، لأن كل أمنيتهم كانت متجهة نحو التغلب على جميع الصعوبات التى أوجدتها انجلترا، الأمر الذى يقصدون منه فصل مصر عن الدولة العثمانية وتأسيس حكومة عربية مستقلة وذلك كما كان مشاعا فى حينها . اذ ذاك رأى القناصل أنه لا بد من القتال فأوعزوا الى جالياتهم بالمهاجرة .



مهاجرة الأجانب من الاسكندرية قبل إنذار سيمور

أما أهالى الاسكندرية فانهم انزعجوا وتيقنوا سوء العاقبة ، فسارعوا بالسفر إلى داخل البلاد أفواجاً ، فازدحمت بهم قاطرات السكك الحديدية ، حتى اضطر الكثيرون لاعتلاء ظهر العربات

واستمر العرابيون ، بعد ما دار بينهم وبين الاميرال ، فى أعمال التحصين ، فأتوا بمدفعين كبيرين فى طابية السلسلة ، ومدافع أخرى فى بقية الطوابى استعداداً للمقاومة .

ولما صوبت المدرعات الانكليزية أشعتها الكشافة على الطوابى ليلا شاهد الاميرال أفواه المدافع الكبيرة فيها تحرر وتسدد، والمواعين تنقل فيها الأحجار ، لسد مدخل الميناء وحصار الأسطول . فأرسل انذاراً نهائياً إلى طلبه عصمت باشا فى يوم ١٠ يوليه يطلب فيه انزال هذه المدافع من مواضعها ، وترك التحصينات ، ومنع المواعين من حمل الحجارة ، وإلا اضطر لتدميرها بعد أربع وعشرين ساعة

اجتماع فوق العادة لمناقشة الموقف . ولقد اضطربنا لهــذا الانذار ايما اضطراب ، وأخذنا نتساءل عن النتيجة وخشية عاقبة طيش العرابيين واغترارهم بأنفسهم

ولما عرض على الخديو هذا الانذار أمر فى الحال بعقد مجلس فوق العادة برياسته فى سراى رأس التين فى اليوم المذكور ، للنظر فى طلبات الاميرال . وقد حضر هذا المجلس درويش باشا المندوب العثمانى ، وقدرى بك كاتم أسراره ، والسيد احمد أسعد ، وراغب باشا رئيس النظارة ، واحمد رشيد باشا ناظر الداخلية ، ومحمود الفلكى باشا ناظر الأشغال ، وعلى ابراهيم باشا ناظر الحقانية ، واحمد عرابى باشا ناظر الجهادية ، وسليمان أباظه باشا ناظر المعارف ، وحسين الشريعى باشا ناظر الأوقاف ، وعبد الرحمن رشدى بك ناظر المالية ، ومحمود فهمى باشا المهندس ، ومحمد كامل باشا وكيل البحرية ، وقاسم باشا وكيلها السابق ، وسلطان باشا رئيس مجلس النواب ، ومحمد مرعشلى باشا من كبار المهندسين وباشمهندس الطوابى ، واسماعيل باشا أبو جبل ، ومحمد باشا سعيد من الاعيان ، وتيجران بك السكرتير برياسة النظار ، واحمد مظلوم باشا المستشار فى محكمة الاستئناف المختلطة ، واللواآت طلبه عصمت وعبد العال حلمى وعلى فهمى من الضباط وغيرهم .

ودارت المناقشة حول إجابة طلب الأميرال أو رفضه ، فلاحظ مرعشلى باشا أن طوابى الاسكندرية تعجز بمدافعها القديمة عن مقاومة المدرعات الانجليزية المجهزة بأحدث المدافع وأكبرها . فأجابه قاسم باشا على تلك الملاحظة متهكماً : « وهل اذا أمطرتنا المدرعات قذائف كبيرة أنقابلها بقذائف من البرتقال !! »

وقد قال مرعشلي : « إنه يعرف جيداً درجة مقاومة حصون الاسكندرية، ومقدار قوة السفن الانجليزية ، وأن الحصون لا تقوى على المقاومة أكثر من أربع ساعات ولذلك فهو لا يرى مقاومة الانجليز فيما يطلبون » . فرد عليه محمود فهمي باشا قائلا : « إن هذه الأفكار صادرة من رأس أصبحت مسوسة » فعند ما سمع مرعشلي باشا هذا الكلام خرج من المجلس قائلا: «حينئذ ما علينا ألا أن نترك للرءوس الشابة تدبير الأمور»

أما درويش باشا فكان قد توجه لفحص طابية الفنار . وقوة المدافع الموجودة بها ، ومعه محمد ياور افندي أحد ضباط الحرس الخديوى — وكان معيناً لمرافقته — فقال في المجلس المذكور إنه بصفته ضابطاً طوبجياً يقرر أن الطوابي والمدافع الموجودة بها لا يمكنها أن تقاوم مدافع المدرعات الانكليزية . وقال أيضا إنه لو وثق بأن مصر تستطيع المقاومة لتولى بنفسه قيادة جيشها ، ولذا فانه نصح لعرابي بقبول طلبات الاميرال. وقد علمت كل ذلك من مظلوم باشا عند خروجه من هذا الاجتماع .

وعلى العموم فقد كانت النتيجة أن تغلب العرابيون، وتقرر إرسال وفد مؤلف من عبد الرحمن رشدى بك ناظر المالية ، وقاسم باشا ، ومحمد كامل باشا ، ومعهم زهراب بك من ضباط نظارة الحربية ، ليقابل الأميرال سيمور ويؤكد له أن المصريين ليسوا أعداء للانجليز ، ويبين له أن ما يجرى في الميناء ليس إلا ترميمات عادية .

ولما ذهب هذا الوفد لم يقتنع الأميرال بما قاله ، بل أطلعه على سجل قيدت به الأعمال التي أجريت يوماً فيوماً ، وبيان عدد المدافع الجديدة التي وضعت ، وأصر على ما طلب من وقف التحصينات . فعاد الوفد والاجتماع ما زال منعقداً ، فأبلغ ذلك للمجتمعين ، فعادوا الى المناقشة ولم يصلوا الى نتيجة حاسمة ، ثم عاد الوفد فعرض على الأميرال إنزال ثلاثة مدافع من طوابي المكس وصالح والسلسلة . عندئذ أجاب سيمور بأنه يصر على إخلاء طوابي المكس والعجمي وباب العرب وما وراء الطابية الأولى من الأراضي لاستراحة جنوده فيها . ولكن المجلس قرر رفض طلبه وأعلموه بأن الفرمانات لا تبيح لمصر ذلك . ثم انفض المجلس وكانت النتيجة تصميم العرابيين على المقاومة

وكان السائد على أفكار العرابيين ، كما سمعت من كثيرين من الضباط ممن كانوا يترددون مع عرابي على السراى ، ان الانجليز قوم يشبهون السمك الذي يهلك اذا خرج من البحر ، وأنهم اذا تغلبوا بمدرعاتهم على الطوابي فلن يستطيعوا أن ينازلوا الجنود المصرية في البر . وكان عرابي يجاهر باعتقاده أن انذار الاميرال لا قيمة له ، وأن القصد منه مجرد الارهاب ولن يتبعه عمل .

وفى مساء ذلك اليوم اجتمع محمود سامى وعرابى وآخرون ، واستدعوا رفعت بك كاتم أسرار مجلس النظار ، فوضع ، امتثالا لأمرهم ، تقريراً فى المسألة مفاده أن الأميرال تجاوز الحد فيما طلب ، وأنه لابد من المقاومة ، وأن عرابى وجماعته مفوضون فى الدفاع عن البلاد . وأرسل به للنظار فى منازلهم فوقعه بعضهم طائعاً والآخر مكرها . وأرسل للاميرال قبل طلوع شمس يوم ١١ يوليو

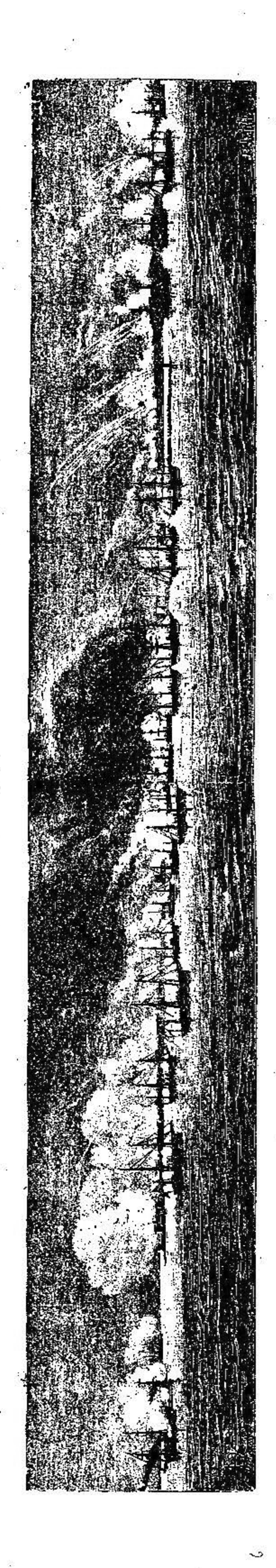
لما رفض المجلس طلبات سيمور الأخيرة وتأكدنا عزمه على إطلاق مدافع المدرعات عند بزوغ الشمس ، اضطر الخديو أن ينتقل هو ومن معه الى مكان آخر بعيداً عن الأخطار

وقد أشار المستر كارترايت ، نائب قنصل جنرال انجلترا ، على الخديو أن ينزل وأسرته الى احدى البوارج الأنجليزية ، ليكون فى مأمن مما عساه أن يصيب سراى رأس التين ، لانها عرضة لقذائف المدرعات (١) فأجاب الخديو على ذلك جواباً يخلق بنفسه الكبيرة ، إذ قال : « لقد شاطرت أمتى هناءها وصفاءها ولا بد أن أشاطرها شدتها وبؤسها » ، واختار أن ينتقل هو ومن معه الى سراى مصطفى باشا ، بالقرب من سيدى جابر وصدر الأمر بذلك ، فهرعنا جميعاً إليها رجالا ونساءاً وأطفالا ومعنا درويش باشا ، وكانت هذه السراى خالية مهجورة من مدة طويلة ، فدخلناها على غير استعداد بها ، واستوى كل منا فى محله كيفما كان ، وبتنا ليلتنا الأولى بغير طعام ، وقضيناها فى مساورة الهموم وفى الحدس والتخمين فيما ستئول إليه حال البلاد . وقبيل طلوع الشمس كنا أمام المنافذ المطلة على البحر وكان الأسطول يستعد للضرب (أنظر ص ١٦٤ و ١٦٥)

ضرب طوابى الاسكندرية . وفى صباح ١١ يوليو شاهدنا حركة فى الأسطول الانجليزى ، واحتلت كل مدرعة مكانها أمام الطابية التى عهد إليها بتدميرها . وفى الساعة السابعة أطلق الأسطول نيرانه على الطوابى فلم تجبه إلا بعد إطلاق عدة طلقات . ثم اشتبك الفريقان فى القتال ، وتناثرت القنابل فى الجو ، واشتد الترامى من الجانبين (أنظر ص ١٦٦) . ثم رأينا اللهب يرتفع فوق المدينة من جهات مختلفة وانتشر بشكل مريع ، فوقع هذا المنظر فى نفوسنا أشد وقع ، وتفطرت قلوبنا ألماً وأسى . وبعد ثلاث ساعات أخذت النار التى شبت فى الاستحكامات تتضاءل ، حتى اذا جاء الظهر كان قد تم تدمير أغلبها .

---

(١) والواقع ان القنابل أصابتها واخترقت قنبلة منها قبة السراى .

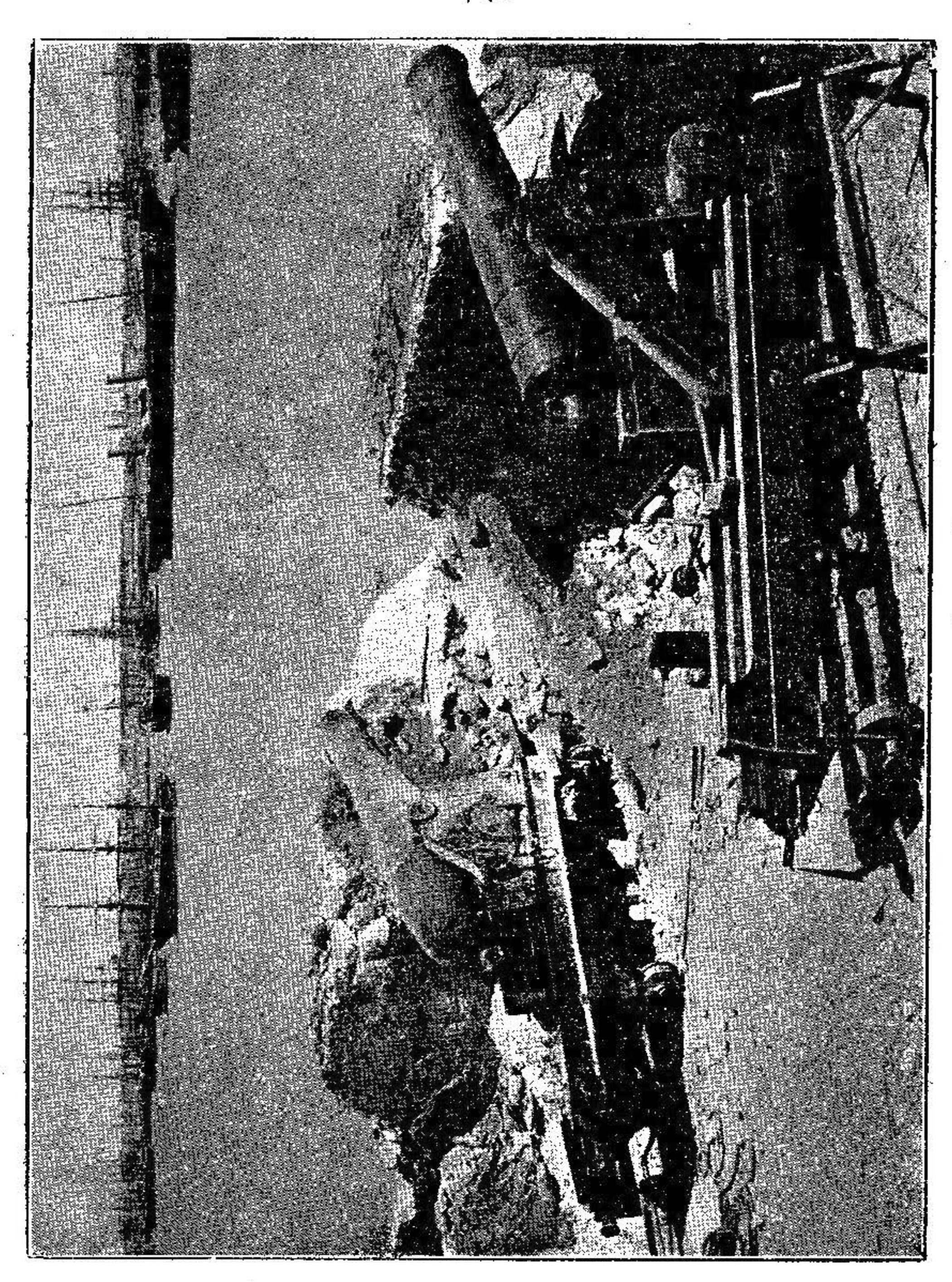

البوارج الانجليزية مصطفة تجاه الطوابى

وكان النظار مع عرابى فى طابية كوم الدماس للاشراف على مواقع القتال ، فأرسل الخديو يستدعى عرابى قبل الغروب ، فتوجه ومعه راغب باشا الى سراى مصطفى باشا ، واجتمع المجلس تحت رياسة الخديو بحضور درويش باشا .

وبلغنى أن الخديو سأل عرابى عن نتيجة القتال فكان جوابه : واعجبا كيف أن أفندينا يجهل الى الآن ما كان ! فاستاء سموه لهذا الرد الجاف . وقال لعرابى : — إن العجب هو عملك أنت ، لأنك لم تكتب تقريراً بهذا مع أنك ناظر الجهادية ! ثم طلب منه كتابة تقرير فأبى ، بحجة أنه لا يمكنه . وكان هذا الرد سبباً لتعنيف درويش باشا له

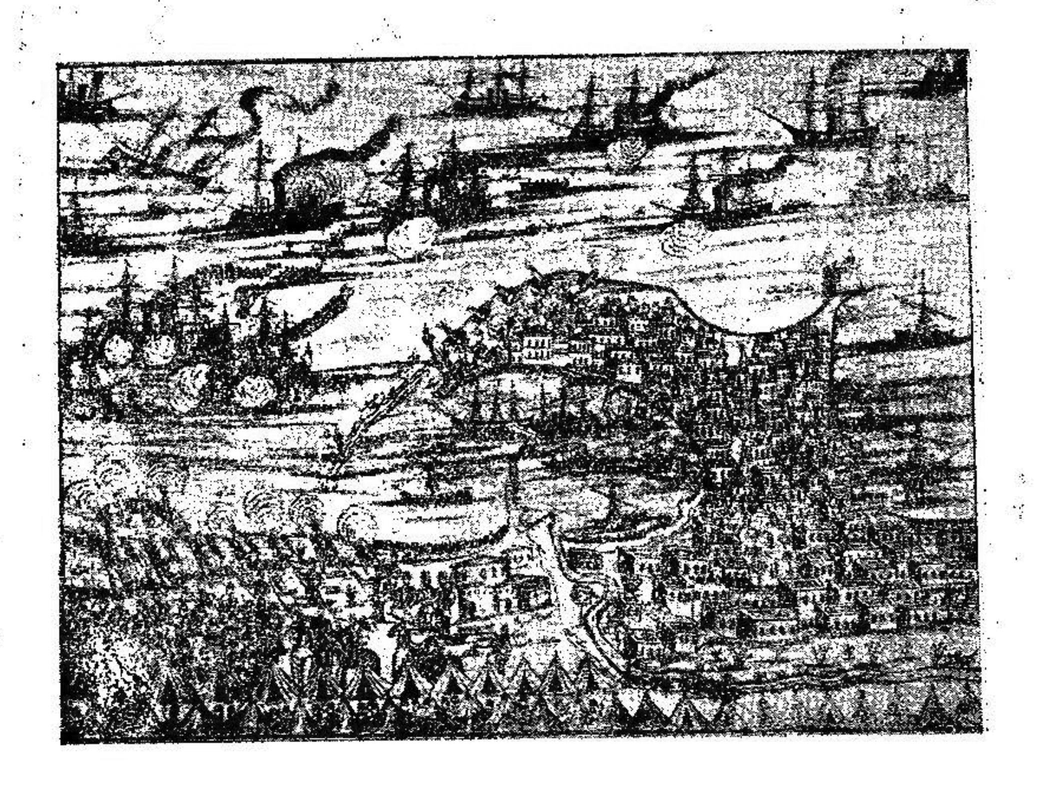
وبعد المناقشة استقر الرأى على أنه اذا عادت المدرعات الى إطلاق النيران فى صباح ١٢ يوليو فلاتجاوبها القلاع ، بل ترفع الراية البيضاء إشارة الى طلب المخابرة فى إعادة العلاقات الودية بين المصريين والانجليز ، بعد أن حقق الأميرال غرضه وهو نسف الحصون .

وأذكر أننا لم نتناول طعاماً منذ انتقلنا الى سراى مصطفى باشا إلا فى ظهر اليوم التالى ، بعد أن برح بنا الجوع أربعاً وعشرين ساعة ، وقد تناولناه فى مناظر محزنة مضحكة معاً . فقد أتى إلينا بخوان منخفض من الخشب «طبلية» وضعت عليه صنوف من اللحم والبقول والفطير ، دون الخبز ، إذ لم يكن موجوداً إذ ذاك . فجلسنا القرفصاء حوله عدا زميل لنا هو محمد بك وصفى من رجال التشريفات ، فقد استمر واقفاً فى مكانه ينظر الى



الأسطول الإنجليزى مستعد لتدمير الطوابى

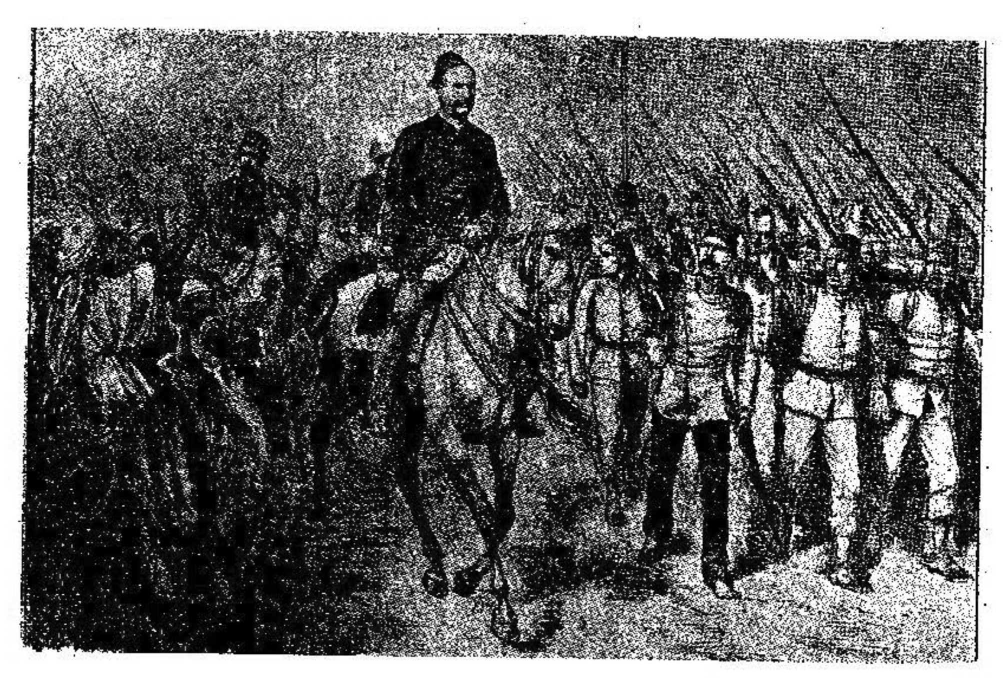
القذائف التى تدمر الطوابى والنيران المشتعلة منها . وكان قد قضى الليل يعاقر الراح ، فلما دعوناه الى الطعام التفت إلينا محتداً وانهال علينا بالشتم قائلا : « كيف تتذوقون الطعام ونيران المدافع تحرق المدينة » فاعتذرنا بأنا لانستطيع الموت جوعاً . وعاد هو يحدق فى البحر ثانية . ولكن حانت منه التفاته الى الخوان بعد برهة فرآه يكاد يقفر من الطعام ، فأفاق من سكره بغتة وهرع فاتخذ مكانه الى جانبى ، وجعل ينهش الطعام نهشاً . فلم يسعنا إلا الضحك رغم اكتئاب نفوسنا .



تدمير الطوابى

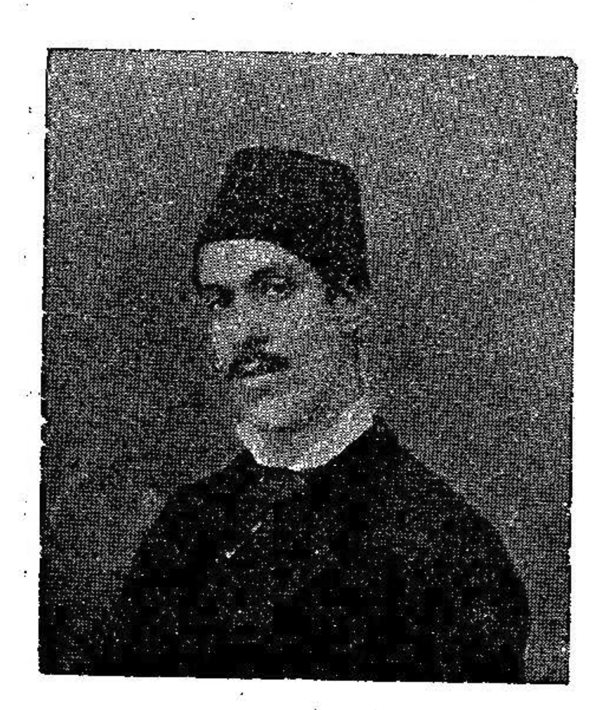
وفى نحو الساعة العاشرة من صباح ١٢ يوليو ، عادت المدرعات الانجليزية فأطلقت قنابلها على الطوابى، فرفعت هذه الأعلام البيضاء ، عملا بالأوامر التى صدرت إليها ،فكفت المدرعات عن الاطلاق . وذهب طلبه باشا قومندان المدينة الى الترسانة فقابل مندوب الأميرال سيمور ، وأبلغه قرار المجلس بالكف عن إجابة المدرعات ورفع الأعلام البيضاء . ولكن الأميرال أجاب بأنه يرفض قبول هذا العرض ، وأنه مصر على طلبه الأول من احتلال القلاع السابق ذكرها ، وإلا فانه يستأنف القتال فى الساعة الثانية من بعد الظهر. فعاد طلبه باشا إلى سراى مصطفى باشا وأخبر الخديو بذلك ، ثم عاد الى عرابى وأبلغه الأمر .فعقد رجال العسكرية فى الحال مجلساً تقرر فيه أنه لايمكن إجابة الأميرال الى ما طلب من احتلال الحصون . لأنه لا يحق للحكومة المصرية أن تتصرف فى شىء من أراضيها قبل موافقة الباب العالى . ولكن الأميرال لم ينتظر تبليغ هذا القرار اليه فمضى فى أهبته لاحتلال المدينة . ولم يسع العرابيين إلا التأهب للانسحاب السريع (١)

(١) وقد امتاز بالدفاع عن طوابيهم : سيد بك نصير واسماعيل بك صبرى ومحمد بك نسيم (والد صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا) .



عرابى وفلول الجيش مسرعين بالخروج من الاسكندرية بعد ضربها

أخطر ما رأينا ورجوع الخديو الى سراى رأس التين . وفى نفس اليوم ، بينما كنا نرتقب جواب الأميرال ، وصلت عساكر من المشاة والسوارى المصرية فاحتلت القشلاق المجاور لسراى مصطفى باشا . فجزعنا لهذه الحركة ، ولم ندرك الغرض منها ، وكان المرحوم محمد بك منيب على رأس السوارى ، وكان له أصدقاء فى حاشية الخديو فهرعوا إليه وسألوه عن الخبر ، فاسر إليهم ان الأوامر التى أصدرها العرابيون إليه تقضى فى الظاهر بالمحافظة على الخديو ، وفى الباطن بضرب الحصار على السراى والقبض على الخديو وإرساله إلى القاهرة ، خوفاً من التجائه إلى الأنجليز . وصرح بأن ذلك يتم عند وصول الطوبجية من مصر واحضار المدافع التى كانت قد وصلت إلى محطة سيدى جابر . وكان توفيق يتوقع ذلك من العرابيين ليسخروه فى تنفيذ أغراضهم ، وإن



محمد بك منيب

أبى يعزلونه أو يقضون عليه . لهذا أراد أن يغرر بهم ، فأمر باعداد قطاره الخاص ، بحجة رجوعه لعاصمة بلاده . فاستراح العرابيون لذلك . ولكن نظراً لازدحام الطريق بين مصر والاسكندرية بقطارات المهاجرين تأخر وصول القطار ولكى لا يفلت من أيديهم قرروا ارسال القوة التى جاء ذكرها

فلما تحقق الخديو من نيات العرابيين أرسل فى طلب منيب بك ، فأقنعه سموه ، وكان درويش باشا حاضراً ، بوجوب البقاء على طاعته والانضمام إليه فامتثل .

وأمر توفيق بارسال أحد الياوران ليستقدم عرابى ، فحضر ومعه راغب باشا ، فسأله سموه عن السبب فى إرسال هذه العساكر ، فأجابه بأنه لا يعلم الأمر وأنه قد يكون الغرض تقوية الحرس الخديوى . فقال سموه : إنه لا لزوم لهذه التقوية ، وانه يحسن ان يقتصر على الحرس السوارى . فخرج عرابى من حضرته وذهب إلى القشلاق متظاهراً بأنه سيصدر أمره بانصراف الجند المشاة . ولما رأى الخديو أنهم لم ينصرفوا ، أمر محمد بك منيب بأن يبذل جهده فى اقناع زميله قومندان المشاة لينحاز الى جانبه ، فكان له ما أراد . وقد كافأ توفيق الضباط والجنود الذين أظهروا له ولاءاً ووفاءاً

وفى يوم ١٣ يوليو علمنا أن كثيراً من العساكر التى كانت فى الاسكندرية تركوا فرقهم وانصرفوا الى بلادهم . وخشى الخديو أن ينفذ العرابيون ما أضمروه له ، فقرر العودة الى سراى رأس التين . وكان درويش باشا قد أرسل اشارة الى اليخت العثمانى « عز الدين » الذى كان حضر عليه من الاستانة ، بالدنو من سراى مصطفى باشا ، حتى إذا هاجم الثائرون السراى أمكن نزوله فيه مع سمو الخديو . ولكن رؤى أن ذلك ربما يلفت أنظار الثائرين ، فيغرقون اليخت ويقطعون خط الرجعة ، فعدل عن هذه الفكرة

وأوفد الخديو زهراب بك الى الاميرال سيمور ليخبره بذلك . وفى الساعة الأولى من بعد ظهر يوم ١٣ عاد فاخبره بأن الاميرال أمر باقامة الحرس الكافى فى سراى رأس التين وجهة ديوان البحرية وجهة القبارى . ثم استعدت المركبات والدواب لنقل الخديو وأنجاله ورجال الحاشية من سراى مصطفى باشا الى سراى رأس التين ، فمنهم من استقل العربات ، ومنهم من امتطى الدواب ، ومنهم من سار على قدميه . وكان من نصيبى ان تعلقت مع المرحوم محمد زكى بك التشريفاتى الثانى فى مؤخر العربة ، التى كانت تقل حاشية درويش باشا ، وكانت تسير وراء العربة التى استقلها الخديو

والمندوب الشاهانى ، ومن حولها الحرس الراكب ، وشاهدنا فى سيرنا المدافع التى استحضرت لحصارنا

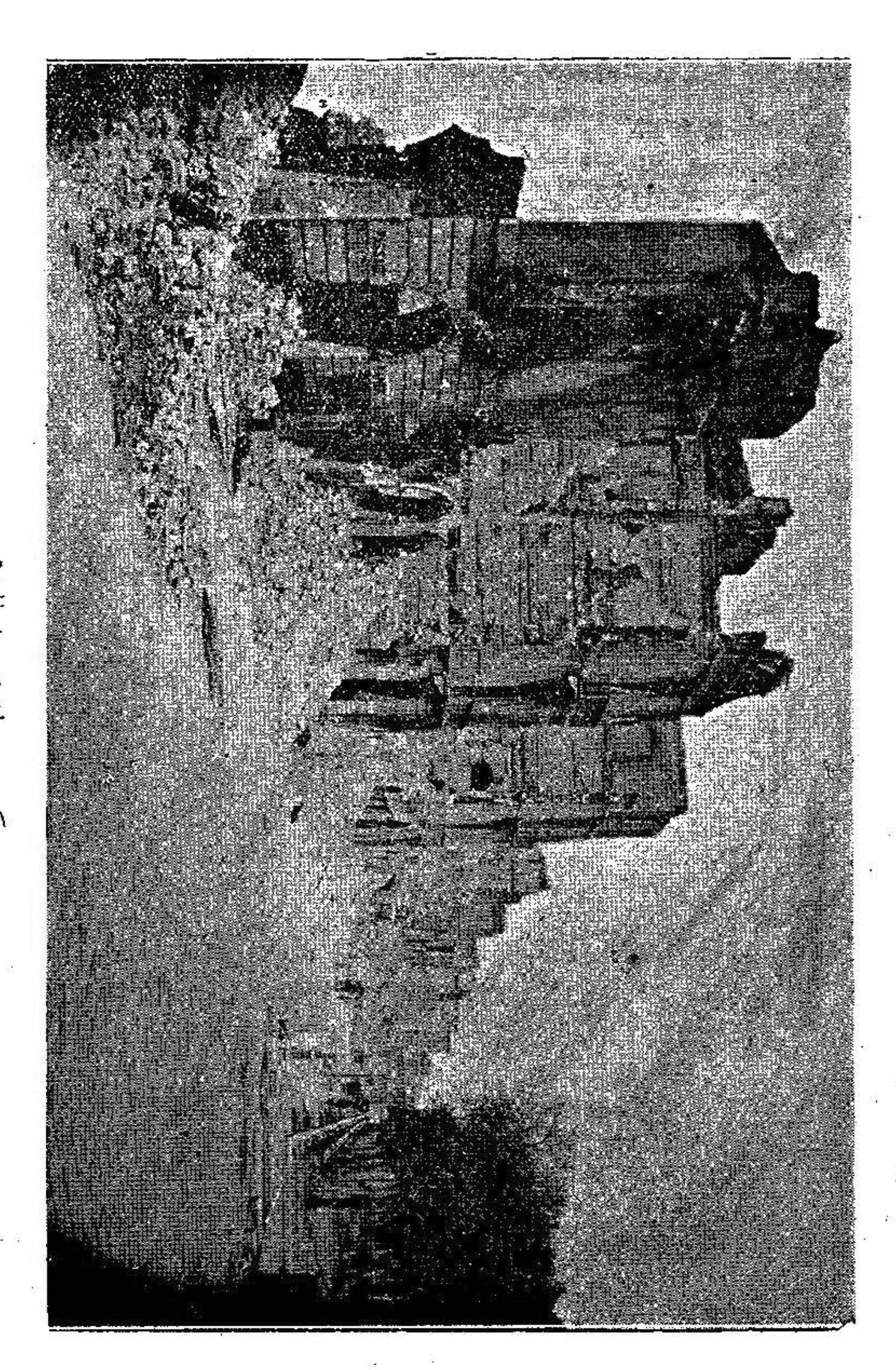
وكان الخديو قد أصدر أمره ، بمجرد وصوله الى سراى مصطفى باشا ، الى أخى المرحوم محمود افندى وهبى ، مأمور مركز أبى حمص ، ليرسل بعض البدو للحراسة . فلبى الطلب ، فوصلوا فى صباح ١١ يوليو ، فمدت لهم موائد الطعام حيث أكلوا وشربوا . وقد شاهدناهم عندعودتنا الى سراى رأس التين منتشرين فى شارع باب رشيد، منصرفين الى سلب المهاجرين من الاسكندرية ، والنساء يصحن ويولولن ، وهم فى أثرهن ، وقد أحاطوا بهن وسدوا عليهن منافذ النجاة ، وأخذوا ينزعون الحلى من صدورهن وآذانهن قسراً ، حتى جرحوها وأسالوا منها الدماء .



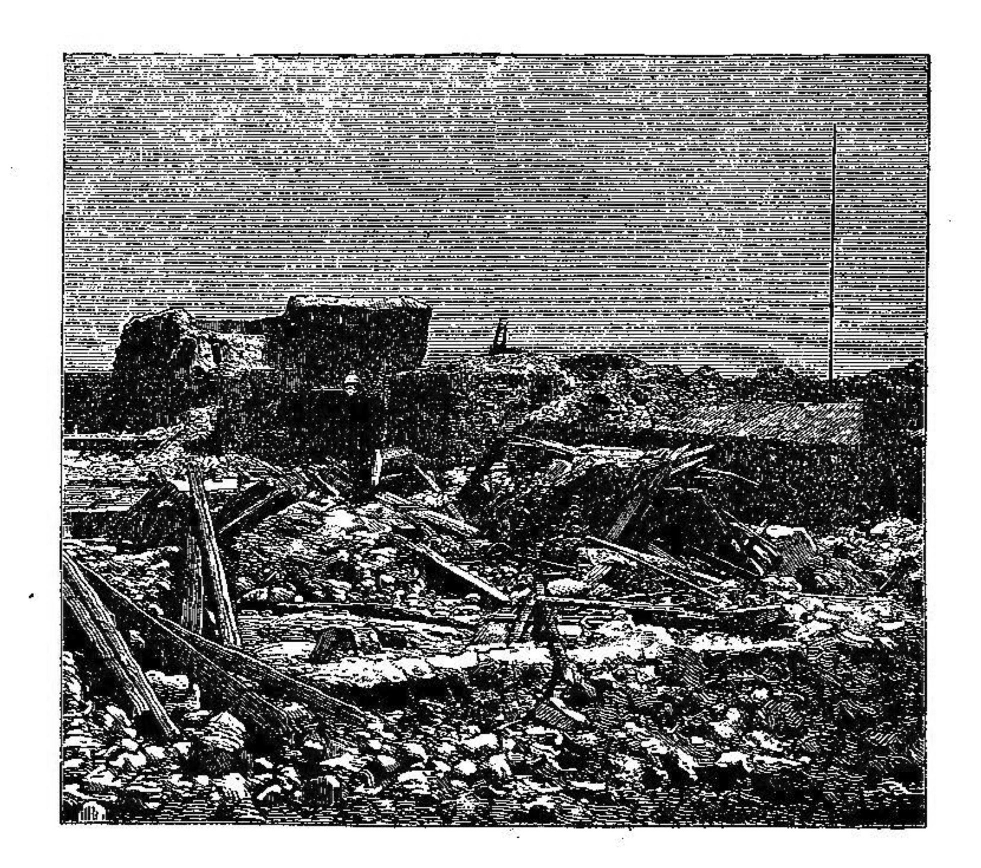
جانب من ميدان محمد على بعد الحريق

وما زلنا نسير بين هذه المناظر المؤلمة حتى دخلنا المدينة ، فى وسط لهب الحرائق التى كانت مشتعلة فى الأحياء المهمة،وكانت فظيعة لاسيما فى شارع شريف باشا ، وميدان محمد على (المنشية) الذى بدا لنا كانه أتون من نار،وما كنا نتصور أننا سنجتاز هذا الميدان دون أن نصبح طعاماً للنيران . وكان الجو مزيجا من دخان ولهيب ودرجة الحرارة تلفح وجوهنا وتكاد تشوى جلودنا كاننا فى جهنم . وقد أضرم هذه النيران رجال سلمان

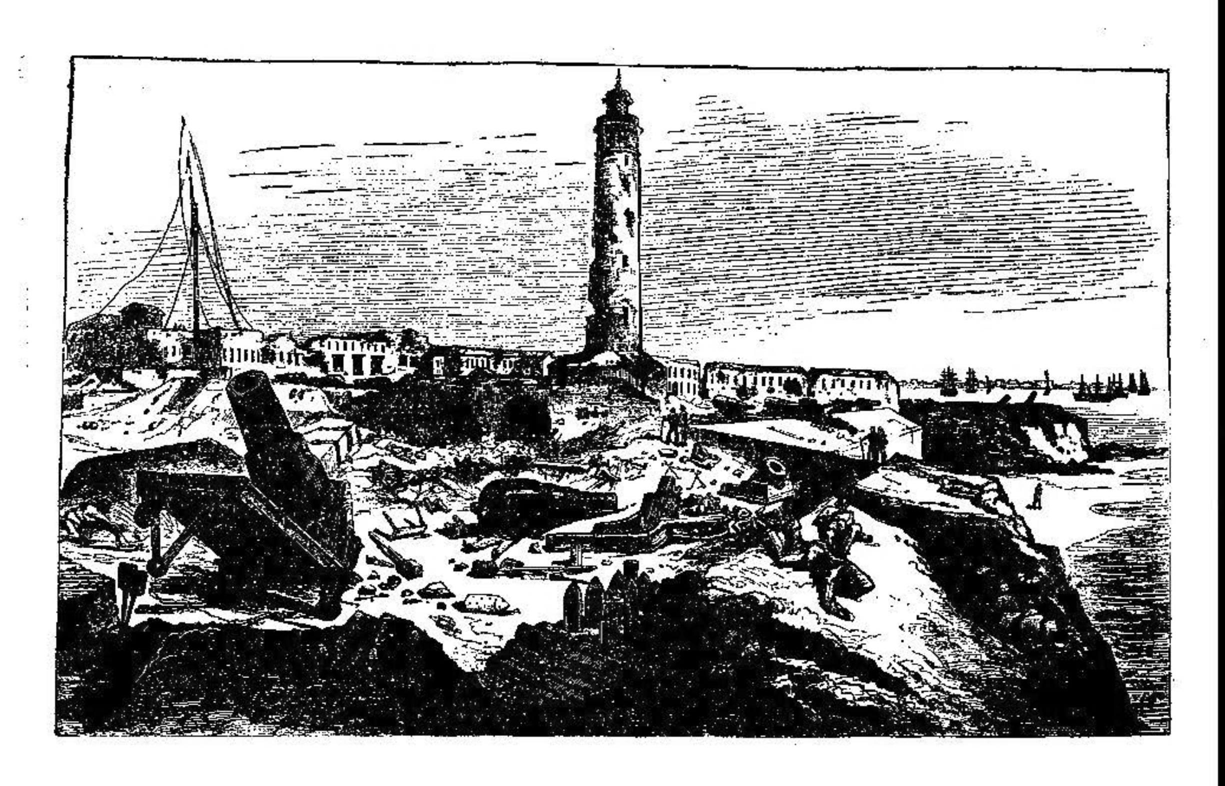
داود عند انسحابهم من المدينة باشعال زيت البترول . هـذا الى أنهم تركوا الرعاع ينهبون المدينة والمهاجرين ، حتى أننا أثناء اختراقنا المنشية رأينا اثنين من العربان يركضان خلفنا ، فانزعج زميلي وسألهما بحدة : ماذا تريدان ؟ ولكنى أشرت عليه بأن يتركهما فسيرجعان بطبيعة الحال . وهذا ما حدث .



ركن من ميدان محمد علي المحترق



تدمير قلعة المكس



طابية الفنار بعد تدميرها

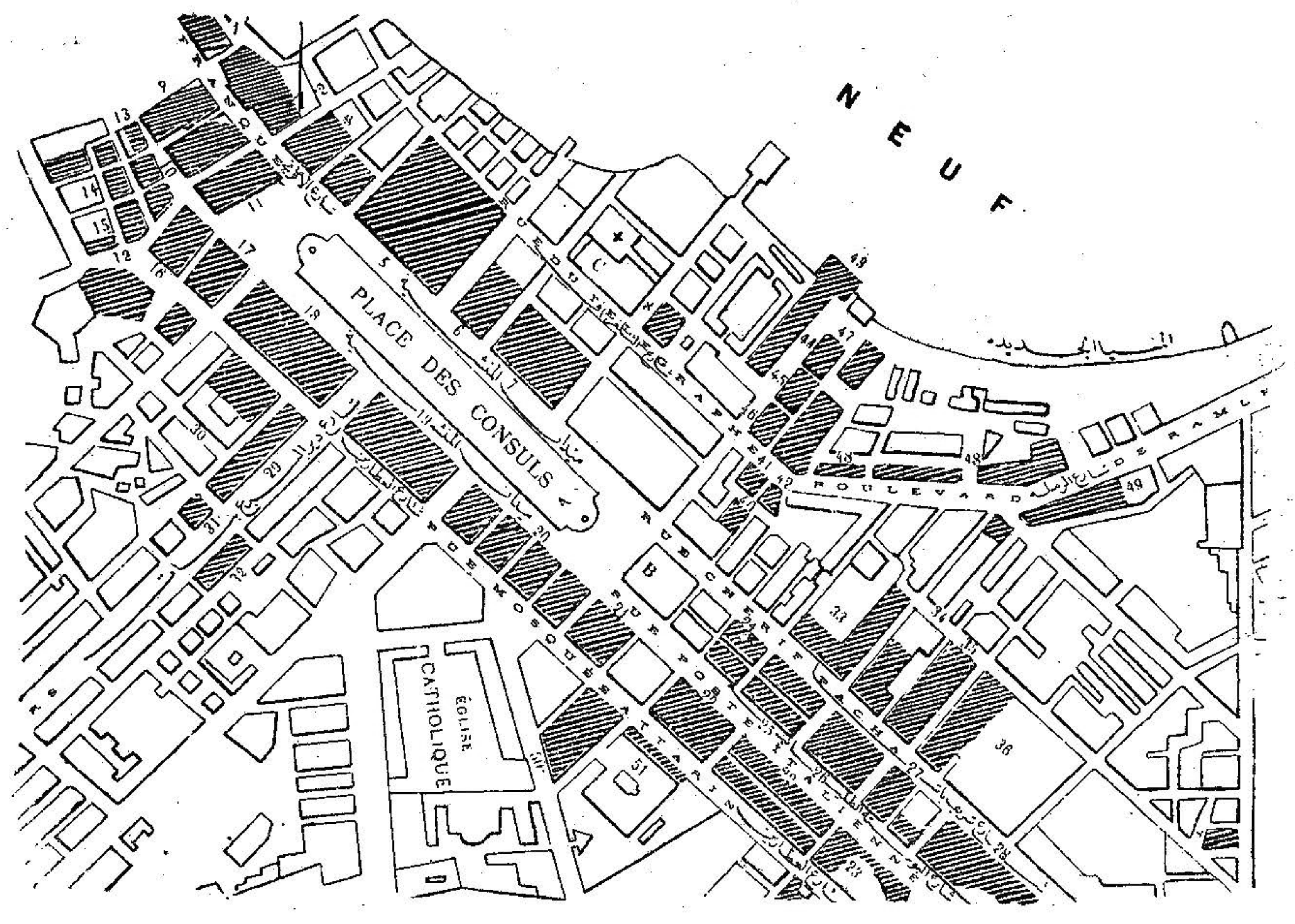
وعند وصولنا الى أول شارع رأس التين التقينا بسليمان داود بك راكباً جواده ، فخشينا عدوانه ، ولكنه تولى مسرعا الى جهة المنشية ، وربما كان ذلك خوفاً على حياته من الحرس السوارى الذى كان خلف مركبة الخديو

وعلى هذا النحو وصلنا الى سراى رأس التين فى الساعة الرابعة آمنين على حياتنا . فوجدنا عدداً من البحارة الانجليز واقفين للحراسة على مدخل السراى وفى داخلها ، وكان الأميرال سيمور واقفاً على سلم السلاملك يرتقب قدوم الخديو . وبعد أن أدى التحية لسموه رافقه الى الدور الأعلى ، وهناك أخبره بما لحق السراى من التخريب فى قسم الحريم .

وقد لحق بنا الى السراى كثيرون من الوطنيين والأجانب ، منهم أستون باشا رئيس أركان حرب ، والأميرال فردريكو باشا من البحرية المصرية ، والدكتور أباته باشا ، وزهراب بك ، وتيجران بك ، ومحمد نسيم بك الطوبجى وغيرهم . فوزعت غرف السراى على اللاجئين ، وكانت إقامتى مع محمد زكى بك ووصفى بك من رجال التشريفات

وعدنا نقاسى ألم الجوع ، إذ لم نجد فى السراى ما يؤكل وخصوصاً الخبز ، فأرسل الخديو فى الحال شرذمة من العساكر الى مخبز القبارى التابع للحربية ، بعد أن انسحب منه العرابيون ، فأحضرت ما وجدته من الخبز « الصامولى » وكان يابساً ، فوزع علينا وكنا فى شهر رمضان ، فكان فى أفواهنا لذيذ المذاق وكأنه الحلوى يفطر الصائم عليها .

وأذكر أن وصفى بك تمكن من الذهاب الى المدينة فعاد إلينا بعلبة كبيرة من « الغريبّة » وكأنه جاءنا بالدرة اليتيمة وسلمها إلى قائلا : « أنت أدرى ياشفيق بما نحن فيه من العوز والجوع وأنا أعهد فيك الأمانة وحب الاقتصاد فوزعها علينا بالعدل » فكانت فى أفواهنا ألذ الأشياء مذاقاً .



مدينة الأسكندرية مبين فيها الاماكن المحترقة